الإنســـان
في التصور القرآني

الاستاذ احمد ابراهيم عجمي

عندما نتبصر في خلق الله سبحانه وتعالى ونسوح في عالمه الواسع المترامي واقعاً وخيالاً، يلفنا العجب والدهشة من عظمة هذا الكون وعجيب ما يحويه من مخلوقات على اختلاف أنواعها وتكوينها، إن كانت سائلاً أو غازاً أو جماداً أو حيواناً يسعى ولأخذتك العجبة من دقة في التركيب وجميل في التناسب، مع ما فيها من مخزون العلم وعظيم الفن ما يأخذ بالألباب وتعجز الألسنة عن التعبير والعقل عن الاستيعاب، ولأخذك الزهو كيف أن الله سبحانه وتعالى توّج الإنسان «الذي هو أنت ذكراً أم أنثى» والنساء شقائق الرجال ملكاً على تلك المخلوقات كافة وجعله خليفة في الأرض وداعية وبوأه سدة عالية سيداً عاقلاً حراً كريماً كما أحب الله له أن يكون وجعل له من الإسلام الدين السبيل القويم السهل النظيف ليوصله إلى ما أعد الله له من المراتب وحسن المآل.

أما إذا تنكبها وشط به المزار خسر نفسه وباء بالخسران والهوان «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فعليها» وما ربك بظلام للعبيد.

وأود قبل أن اغوص مع الإنسان والإسلام في المحيط الضخم، أن أعرج في هذه العجالة على تأثير الدين وأهميته في ضبط أمور المجتمع وتسيير أمور الخلق وأنفّس عما يعمر النفس من التقدير الكبير للدين والاحترام الجليل لمعطياته، فمن أثر له عظيم في تهذيب النفس ودفعها لسلوك أجمل السبل للوصول إلى لب الحقيقة وسمو المكانة التي أعَدَّتْ لها على هذه الأرض، وكيف أن هذا الدين يصهر الإنسان في أتون اصلاحيته ويشذبه ويعده ليجعل منه الخليفة اللائق لتلك المهمة الصعبة المقدسة إن وعاها.

ولو تمعنا قليلاً في أثر الدين وفي مجتمع متدين مميز لرأيت روائعه بادية ناصعة، إن في تكاتف المجتمع في أطرافه أو امتداد لجذور المحبة بين الناس، وإن بالسهولة والبساطة في الاتصال والمعاملة، وكيف أن الدين يولد أكبر رادع في نفس المؤمن عن كل الموبقات والشواذات فتسلم الدنيا من شروره وآثامه ومن بطشه وطغيانه.

ومن عظمة الدين أنه لجام الإنسان في داخل الإنسان، وإلا فلولاه لما منع الناس وزجرها عن الاجرام كل قوانين الأرض وشرطـها وجيوشها ورجال مباحثها ولسادت شرعة الغاب والذئاب وأكلت الناس بعضها واندثرت الدنيا هباء وهشيماً ورجع الناس إلى العهود الأولى من الهمجية والبدائية والتخلف.

وبمقارنة بسيطة بين مجتمع مؤمن متدين وبين مجتمع يدعي التمدن وقد استحوذت عليه المادة وتلبسه الشيطان لرأينا البون الشاسع والنسب الكبيرة الفرق في كمية الاجرام ونوعية الآثام رغم أن هذه الدول وجلها عظمى ومعروف لدينا قد استعملت واستغلت كل أساليب القمع والتكنولوجيا في التحقيق والتدقيق والملاحقة وضبط الأمور والعقاب.

والإسلام هو الدين عند الله كما ذكر سبحانه في القرآن الكريم **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** وإن نزل على فترات متفاوتة وفي اسماء مختلفة، فالجوهر واحد وإن بدأ نشره مع أول خيوط الوحي على الأنبياء والرسل منذ بدء التاريخ وانتشر متوسعاً متناسباً مع تفتح الفكر والوعي الاجتماعي زاخراً في العطاء على مر الزمان واختلاف الحقب حتى انتهى مع خاتم الانبياء والرسل محمد (ص) كاملاً جامعاً تاماً لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه كما نوه سبحانه في الذكر **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** أو كما ذكر في الحديث «إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق». وقد نعته ربه باسمى ما عنده **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**.

إن أسمى أنواع التربية هي التربية الدينية التي تهدف إلى النمو الروحي والتهذيب النفسي، وتنمية المسلك السليم وتعويد النفس العادات الصالحة والأخلاق الفاضلة والمُثل الكريمة، وقد أكدها علماء النفس فقالوا: ـ «إن الدين يمنح الإنسان قوة عظيمة من الإيمان والتعقل والبصيرة وهذه القوى تشكل طاقات روحية تسعى إلى تدعيم الخير في قلوب البشر وتنمية المثل السامية في نفوس المؤمنين وهذه أسمى وأنبل ما نصبو إليه في بناء الإنسان في كل زمان ومكان.

فالدين هو العاصم الوحيد عن الشذوذ والانحراف يعمل على تشذيب الرغبات وتهذيب

الغرائز وطهارة النفوس وإنقاذها من الانحلال وصيانتها من الإنهيار، وعدم تلويثها بالآثام والمغريات والكبائر. فهو إذا استحكم في النفس أودع فيها قوة إيمانية هائلة متماسكة تصدها عن الانحراف وتوحي لها فعل الخير والتسابق في ميادين البر والتقوى وتقضي على أسباب القلق وعوامل التمرد كما تؤهل الفرد للحياة الوادعة الهنيئة في مجتمع عابق بالخير والمودة.

إن القوى الروحية لا بد أن تؤثر إيجاباً على السلوك الإنساني وعلى توجيهه بما يتسم بالاتزان للعقل والنفس، وللإيمان فكرة وعقيدة أثر عميم سيال يجري في الأعضاء والجوارح أفعالاً وسلوكاً رائعين واندفاعاً وئيداً ينوعاً نحو قوى الخير والفعل المثمر لصالح البشرية والإنسانية جمعاء.
وكي يكون أهلاً لحمل الرسالة هيأ له كامل أسباب النجاح والفوز فجعله تام الخَلْق والخُلُق روحاً وجسداً، وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فمن جسد جميل المظهر حسن القوام معجزة في التكوين مزود بالعين المبصرة والأذن السامعة، وبجميع الحواس اللازمة والمعبرة ولسان حاذق بليغ يتوجها كلها عقل مدبر آية في الإعجاز فجعل منه سيد الخلق كامل التكوين فتبارك الله أحسنُ الخالقين، وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الإنسان وليس جمال الخلق وحده مرتبطاً باعتدال القوام بل مرتبط به القدرة على العمل والإرادة وهي قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الأعضاء الذي اثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق في الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ثم زاد الناس علماً بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال.

ومن ثم سن له السنن والسُبُلَ يسّرها واضحة ليصل بعمله الصالح بعد اجتياز عقبات شتى تعترضه ليفوز بالامتحان المعد له في الدنيا كما ذكر سبحانه: **﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾** فقد هداه النجدين وأطلقه وعليه العمل والتطبيق للتعاليم بحقيقتها دون زيغ كي ينال السبْقَ ويحوز رضا الخالق الكريم.

فالإنسان هذا الصنع الإلهي الرائع من كل نواحيه وقد وصفه الإمام علي (ع) كما ينسب إليه بقوله:

دواؤك منك وما تذكر ودواؤك فيك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو مجموعة غريبة الصناعة تركيبة ربانية من الروح والمادة جعله الله المخلوق الوحيد المسؤول المكلف المؤتمن كما ذكر سبحانه: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وكان ظلوماً جهولا**﴾. وعلى قدر العزيمة هيئت له العزائم خلق لمهمة صعبة فيجب أن يكون الاستعداد جيداً متجانساً، فأعطاه كامل الحرية والسيادة في كل تصرفاته وأعماله ليكون وحده مسؤولاً عن اختياره وعطائه ونتائجه، فمتى كان العبد قادراً على العطاء وقد جُمِّد فيه وشل أعز وأكرم ما عند من عقل ومواهب؟

ومتى كانت الشعوب المستعبدة أيضاً قادرة على النهوض والنجاح وقد قيدت حريتها وشل العقل المفكر عندها وخمدت وقدة الحيوية فيها فطمرها الأسن والهمول ومصيرها الانهيار والفناء وإذا لم يهيأ لها سبيل للانعتاق والانطلاق.

لقد جعل الله سبحانه الإنسان حراً كامل الأوصاف قادراً بالعلم والعمل والعقل أن ينجز ما خطط له من مسلك ومسؤولية ليتحمل وحده وزر أعماله وتبعات تصرفاته فيكون بعدها إما شاكراً وإما كفوراً ولا تزر وازرة وزر أخر وكل امرئ بما كسب رهين. وقس حال عدم تهيئة العزائم ونقص في الاعداد فلا يسأل الإنسان عما يجهل ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم، وما من شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه والله رؤوف بعباده، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى في الإنسان معجزته الخارقة ، دقيقة في تركيبها، معجزة في الإبداع، تركيبة عجيبة من العقل ومجموعة من الغرائز والأهواء لا يَلُم بها إلا خالقها وقد تاه الفلاسفة الأقدمون والمحدثون عن تحديد أبعادها وعن فهم تداخلها وتمازجها فتشعبت بهم النظريات وتفرقوا في التكهن والتخمين والاستنباط.

وفي نظرة علمية فيزيولوجية برهن بعض العلماء أن الإنسان وحدة لا تتكرر، كما اثبت العالم البيولوجي الأستاذ «مداوار» الشهير حائز جائزة نوبل لعام ١٩٦٠ وصاحب البحوث العالية في تهيئة جسم الإنسان لقبول الأجسام الغريبة التي تنفر منها خلاياه في العمليات الجراحية، على الرغم من تقسيم الآدميين إلى فصائل وعائلات في تكوين الدم وأنسجة الخلايا فإنه قد تبين له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الإنساني وحدة لا تتكرر في مكونات بدنه وأن كل حكم من طريق التقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ، عند التجارب الطبية لنقل الأنسجة

والأعضاء من بنية إلى بنية.

فهذا المخلوق المعجز روحاً ونفساً وجسداً هيأه سبحانه لمركز الخلافة وأعطاه كلَّ ما يلزم وزوده بكل ما يعوزه في مسار الحياة وكرمه وعظمه على سائر المخلوقات فيقول في فرقانه، **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر﴾**.

وبإزاء هذه النعم التي أغدقها عليه حمله المسؤولية الكاملة وهو دون غيره من الخلائق يوصف بالكفر والخسران والكنود كما في الذكر: «إن الإنسان لفي خسر، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه، وإن الإنسان لربه لكنود».

لأنه دون غيره من المخلوقات أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف، ولأن السيئة والحسنة لا يوصف بها أبداً مخلوق غير مسؤول. فالإنسان في عقيدة الإسلام هو المؤمل المرتجى بين الخلائق كلها يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب من الدين والإيمان: «ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً».

وللإنسان في الإسلام مكان راق هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر والحقيقة التي توزن به عامة المخلوقات، هذا الكائن المكلف، الكامل الحرية في التصرف والعمل ضمن ما رَسَم له سبحانه من حدود أم في علاقاته مع الله سبحانه أو مجتمعه أو في اسرته، وما وضع له من علامات في السلبيات من المحرمات والمكروهات أو في الإيجابيات من المعروف والمحلات كي تنور طريقه وتحافظ على نظافة التركيبة جسداً ونفساً وروحاً وكلها جعلها سبحانه لمنفعته وصالحه وراحته وكي لا تبقي له عذراً إن زاح عن الخط السليم أو سقط في الفتنة الدائرة حوله في دنياه وعلى مدار حياته والمسجلة أعماله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**.

ومن عظمة الله ورحمته أنه اشركه في الحكم على نفسه بعد أن يجيئه بكتابه المنشور.

فيقول سبحانه: **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾**.

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

لم يترك الإسلام في تهيئة الإنسان سبيلاً كريماً ولا فسحة صغيرة، ولا زاوية منسية، ولا ثغرة

بسيطة إلا وبينها وشرحها من كل الوجوه، وسن لها السنن ودعمها بالرسل والأنبياء والأولياء كي لا يضيع هذا الإنسان العزيز على الله في متاهاتها، فلا ينال جزاءه إلا عن بينة وصدق، ولا عذر لديه يتجلبب به ساعة الحساب. فإن كان خيراً فجزاؤه جميل وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وإن كان شراً فنار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.

أما في الطور العلمي والتأديبي للإنسان فقد علمه ربه ما لم يعلم كما في الذكر: **﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**. وفي آية أخرى **﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾**. وأدبه فاحسن التأديب ونصحه فاجمل النصح وكمله بالفضائل والأخلاق الكريمة وشرح النواميس الشتى كما ذكر سبحانه: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾**.

وإن كان جلها لوجهه تعالى في ظاهرها إنما الحقيقة أن هدفها الإنسان ـ لأن الله غني عن العالمين ـ وكي يأخذ بيده إلى النجاة رأفة ورحمة به إذ يقول سبحانه: **﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾**. وجعل له في أصول الدين وسننه المهمة في التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، أو في فروع الدين وفرائضه المهمة في الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله كل النور وكل سبل النجاة، ففيها البناء الحقيقي للشخصية الكاملة وفيها المنارات التي تهديه سواء السبيل والمحطات التي يتزود من زيتها في مصابيح طريقه وجعلها معالم أساسية إن تمسك بها لن يضل أبداً حتى يلقى ربه خفيف الميزان مغموراً بالرحمة والغفران. وقد كان فيها الميزان ومنها الصراط وعيناها ونفهمها لأنها تقود إلى دار الخلود... وإليك خطواتها كما سننوّه عنها ونشرح أبعادها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والعلم وما سطرون﴾